حكايات من التاريخ

رسالة عجيبة

وحكاية أخرى

كتبها
محمد رجب

رسوم
محمد نبيل

سقيم

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة لشركة **سفير**

رقم الإيداع : ٢٢٨٧٤ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 361 - 392 - 5

obeikandl.com

إِلَى أَيْنَ يَا صَاحِبَ الدَّارِ ؟!

عَامُ (١٣٤) الهِجْرِيُّ .. «دِمَشْقُ» ... عَايَنَ الرَّسُولُ الدَّارَ. وَقَفَ فِى حِيرَةٍ. الدَّارُ فَخْمَةٌ. عِزٌّ وَجَاهٌ. خَدَمٌ وَحَشَمٌ. غِلْمَانٌ وَحَرَسٌ. صَفَّقَ الرَّجُلُ. جَاءَهُ غِلْمَانٌ : مَاذَا تُرِيدُ، أَيُّهَا الغَرِيبُ ؟

أَجَابَ فِى غِلْظَةٍ : صَاحِبَ الدَّارِ !

أَفْسِحُوا الطَّرِيقَ. قَالُوا : عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ..

وَصَلُوا إِلَى بُسْتَانٍ. نَاسٌ يَسْمُرُونَ. البِشْرُ يَعْلُو الوُجُوهَ.

أَظْلَمَ وَجْهُ الرَّسُولِ. أَيُوجَدُ فِى «دِمَشْقَ» مَنْ يُمَاثِلُ خَلِيفَةَ «بَغْدَادَ» عَظَمَةً وَبَذَخًا ؟

– مَنْ مِنْكُم صَاحِبُ الدَّارِ ؟

تَضَاحَكُوا وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ.

قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُم :

– لَيْسَ بَيْنَنَا ..

– فَأَيْنَ يَكُونُ ؟

– فِي الحَمَّامِ. لا عَلَيكَ اجْلِسْ مَعَنَا. تَنَاوَلْ طَعَامًا وَشَرَابًا. جَلَسَ. غُلامٌ جَاءَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الفَالوذَجِ. زَوَّدَهُ بِشَرَابٍ مُنْعِشٍ. ذَهَبَ الشَّرَابُ بِمَا عَانَاهُ مِنْ مَشَقَّةٍ.

– أَقْبَلَ صَاحِبُ الدَّارِ..

بَرَزَ رَجُلٌ قَصِيرٌ. بَدِينٌ هُوَ. تَخَطَّى عَتَبَةَ الخَمْسِينَ. وَجْهُهُ فِيهِ مَلاحَةٌ. أَقْبَلَ إِلَيْهِ. مَدَّ إِلَيهِ يَدَهُ :

– السَّلامُ عَلَيكَ يَا أَخِي. هَلْ أَحْسَنُوا لِقَاءَكَ ؟

بَحْلَقَ فِي مُضِيفِهِ بِبَلاهَةٍ. تَطَلَّعَ فِي رُعْبٍ. البُسْتَانُ يَغُصُّ بِالخَلْقِ. شَعَرَ بِالخَطَرِ. صُدَاعٌ يَنْقُرُ رَأْسَهُ. قَالَ : أَنَا رَسُولُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ.

– مَرْحَبًا..

– لَكَ مِنْهُ رِسَالَةٌ..

افْتَرَّ ثَغْرُ «عَبْدِ اللَّهِ» عَنْ بَسْمَةٍ. اسْتَنَارَ وَجْهُهُ. قَالَ : أَهْلا بِرَسُولِ الخَلِيفَةِ. نَوَّرْتَ «دِمَشْقَ».

نَاوَلَهُ الرِّسَالَةَ.

آه لَوْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ تَحَرَّكَ ! يُصْبِحُ الرَّسُولُ أَثَرًا بَعْدَ عَينٍ !

– أَنَا بِلا رَيبٍ مِنَ السُّعَدَاءِ. هَلْ يَشْغَلُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بَالَهُ بِي ؟ !

نَادَى «عَبْدُ اللَّهِ» : أَيُّهَا الأَحْبَابُ، أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يَطْلُبُنِي فِي «بَغْدَادَ».

انْطَلَقَ شَابٌّ إِلَيهِ صَائِحًا : يَسْتَدْعِيكَ يَا أَبَتِ ؟ لا تَذْهَبْ !

– وَلِمَ لا يَا وَلَدِي ؟

– نَسِيتَ أَنَّه لا يُحِبُّنَا نَحْنُ الأُمَوِيِّينَ ؟

صَاحَ فِيهِ الأَبُ : صَهٍ ! لا تُقَاطِعْنِي ! قُلْتُ إِنَّنِي ذَاهِبٌ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى الخَلِيفَةِ.

لا تَحْزَنُوا. لا تَغْضَبُوا ..

obeikandi.com

خَجِلَ الابْنُ. سَأَلَ : هَلْ تُوصِينِى ؟

– بِزِيَادَةِ الصَّدَقَةِ. لا تَغْضَبْ. اسْتَوصِ بِالحَرِيمِ خَيرًا .

– أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. التَفَتَ «عَبْدُ اللَّهِ» إِلَى الرَّسُولِ..

قَالَ رَسُولُ الخَلِيفَةِ : رِفَاقِى خَارِجَ الدَّارِ، لَكِنْ ...

– لَكِنْ مَاذَا ؟

– أَصْدَرَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَمْرًا صَعْبًا وَ ...

قَاطَعَهُ الدِّمَشْقِىُّ : – نَفِّذْهُ يَا أَخِى ...

– لَكِنَّهُ صَعْبٌ ..

الرَّسُولُ فِى كَرْبٍ. الرَّجُلُ طَيِّبٌ. أَحْسَنَ الرَّجُلُ ضِيَافَتَهُ. هَلْ يَسْتَحِقُّ أَمْثَالُهُ التَّنْكِيلَ؟

عَادَ الدِّمَشْقِىُّ يَقُولُ : نَفِّذْهُ !

– إِذَنْ فَاسْمَعْ ! أَمَرَنِى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَنْ أَسُوقَكَ فِى الأَغْلالِ .. الرَّجُلُ هَادِئٌ. وَجْهُهُ بَاشٌّ. تُنِيرُ قَسَمَاتِهِ ابْتِسَامَةٌ.. أَسْلَمَ يَدَيهِ لِلْبَغْدَادِىِّ : هَلُمَّ بِنَا ...

تَحَرَّكَا مِنَ البُسْتَانِ. قَالَ الدِّمَشْقِىُّ : لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ..

• • •

– مَدَّ اللَّهُ فِى عُمْرِ مَوْلاى ..

تَطَلَّعَ إِلَيهِ الخَلِيفَةُ . سَأَلَهُ : مَاذَا جَرَى ؟

obeikandi.com

قَالَ الرَّسُولُ : وَاللَّهِ يَا مَوْلاى إِنَّهُ لَرَجُلٌ عَجِيبٌ .

– كَيفَ ؟

– لَمْ نَكَدْ نَبْرَحُ «دِمَشْقَ» إلا وَرَاحَ يُحَدِّثُنِى ..

– عَنْ أَىِّ شَىْءٍ ؟

– تَصَوَّرْ يَا مَوْلاى أَنَّهُ تَحَدَّثَ عَنْ مَزَارِعِهِ وَمَا تُخْرِجُهُ مِنْ ثِمَارٍ.

– فَمَا فَعَلْتَ بِهِ ؟

– صِحْتُ فِى وَجْهِهِ : كُفَّ عَنِ الهَذَيَانِ .. يَطْلُبُكَ الخَلِيفَةُ وَتَتَحَدَّثُ عَنِ الثِّمَارِ وَالنِّعْمَةِ؟

– وَبِمَ أَجَابَكَ ؟

– قَالَ بِبَسَاطَةٍ : أَتَحَدَّثُ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَينَا . أَنَسِيتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؟

صَرَخْتُ فِى وَجْهِهِ : مَسْرُورٌ أَنْتَ وَيَدَاكَ وَقَدَمَاكَ مُقَيَّدَةٌ ؟

ضَحِكَ وَأَجَابَنِى : وَهَكَذَا كَانَ «يُوسُفُ»: ﴿فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

سَأَلَهُ الخَلِيفَةُ : وَبَعْدُ ؟

قَالَ الرَّسُولُ : لَزِمَ الانْصِرَافَ عَنِّى . أَقْبَلَ عَلَى تِلاوَةِ القُرْآنِ حَتَّى وَصَلْنَا !

أَجْلَسَهُ الخَلِيفَةُ بِجَانِبِهِ . اعْتَذَرَ إِلَيهِ : عَفْوًا ، لَقَدْ أَسَأْنَا إِلَيكَ !

فِى سَكِينَةٍ وَهُدُوءٍ نَطَقَ الأُمَوِىُّ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ..

عَادَ الخَلِيفَةُ يَقُولُ : وَنَغَّصْنَا عَلَيكَ حَيَاتَكَ لِمُجَرَّدِ وِشَايَةٍ ..

– وِشَايَةٌ ؟ مِمَّنْ ؟

obeikandl.com

– جِيرَانُكَ فِى «دِمَشْقَ» .. قَالُوا : «عَبْدُ اللَّهِ الأُمَوِىُّ» يَسْكُنُ القُصُورَ وَيُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الثَّوْرَةِ ..

– مَعْقُولٌ ؟ لا أُصَدِّقُ !!

– لَقَدْ أَرْسَلْتُ جَيْشًا لِيُدَمِّرَ قَصْرَكَ إِنْ رَفَضْتَ المَجِىءَ..

قَالَ الأُمَوِىُّ :

– أَدَامَ اللَّهُ عِزَّ مَوْلاى وَعَدْلَهُ، مَا كُنْتُ لأُخْلِفَ مَوْعِدِى مَعَ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ..

هَتَفَ الخَلِيفَةُ فِى وُدٍّ :

– مَاذَا تَطْلُبُ؟

قَالَ لَهُ الأُمَوِىُّ :

– مَا أَجْمَلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى أَهْلِى وَوَلَدِى ! هُمْ فِى كَرْبٍ الآنَ.

– وَالمَالُ ؟

– لا حَاجَةَ لِى بِهِ. المَالُ كَثِيرٌ عِنْدِى..

obeikandl.com

صَفَّقَ الخَلِيفَةُ. قَالَ لِكَبِيرِ حُرَّاسِهِ :

– ارْجِعُوا بِعَبْدِ اللَّهِ إِلَى بَلَدِهِ مُكَرَّمًا .

– أَمْرُ مَوْلَاى !

قَالَ الخَلِيفَةُ لِعَبْدِ اللَّهِ :

– وَأَنْتَ يَا أَخِى إِنِ احْتَجْتَنَا فِى مَعْرُوفٍ أَرْسِلْ إِلَينَا فِى التَّوِّ..

– جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا مَوْلَاى !

رِسَالَةٌ عَجِيبَةٌ !

رَابَطَ جَيْشُ الحَقِّ خَارِجَ الحِصْنِ.

حِصْنُ بَابِلِيُونَ المَنِيعُ. قَلْعَةُ «مِصْرَ» الحَصِينَةُ لِلرُّومَانِ..

كَانَ «المُقَوقَسُ» عَظِيمُ القِبْطِ فِى حِيرَةٍ..

طَالَ حِصَارُ المُسْلِمِينَ شُهُورًا . ضَاقَ أَهْلُ الحِصْنِ بِالحِصَارِ..

عَزَمَ «المُقَوْقَسُ» عَلَى وَضْعِ حَلٍّ لِلْمَسْأَلَةِ..

أَرْسَلَ «المُقَوْقَسُ» لِيُفَاوِضَ المُسْلِمِينَ.. انْطَلَقَ الرُّسُلُ إِلَى مُعَسْكَرِ «عَمْرِو ابنِ العَاصِ». «عَمْرٌو» أَمِيرُ الجَيْشِ اللابِدِ ..

بَعْدَ يَومَينِ أَعَادَ «عَمرٌو» الرُّسُلَ بِرِسَالَةٍ قَصِيرَةٍ..

رِسَالَةٌ عَجِيبَةٌ تَلَقَّاهَا «المُقَوْقَسُ» : ثَلاثُ خِصَالٍ تَخْتَارُونَ بَيْنَهَا :

– أَوْ تَدْفَعُوا الجِزْيَةَ ..

– أَوِ الحَرْبُ وَالجِهَادُ إِلَى أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ!

انْطَلَقَ «المُقَوقَسُ» يَسْأَلُ رُسُلَهُ : كَيْفَ رَأَيْتُمُ المُسْلِمِينَ؟

– المَوتُ أَحَبُّ إِلَيهِم مِنَ الحَيَاةِ..

– وَمَاذَا أَيضًا ؟

– وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ مِنَ الرِّفْعَةِ..

– وَمَاذَا أَيْضًا ؟

obeikandl.com

– جُلُوسُهُم عَلَى التُّرَابِ . يَأْكُلُونَ عَلَى رُكَبِهِم.

– وَأَمِيرُهُم؟

– كَوَاحِدٍ مِنْهُم...

– مَا أَغْرَبَ شَأْنَ القَومِ !

• • •

سَأَلَ «المُقَوْقَسُ» الأَسْوَدَ العِمْلاقَ : أَيْنَ قَائِدُكَ ؟

قَالَ رَفِيقُ الأَسْوَدِ :

– هُوَ أَمِيرُنَا ...

وَقَالَ الأَسْوَدُ : وَأَنَا أُفَاوِضُكَ ..

جَحَظَتْ عَينَا «المُقَوْقَسِ» :

– مَاذَا تَقُولُ ؟

– أَلَمْ تَسْمَعْ ؟ سَأُفَاوِضُكَ ؟

– أَنْتَ ؟ مُسْتَحِيلٌ..!

صَاحَ رَفِيقُ الأَسْوَدِ الثَّانِي :

هُوَ أَمِيرُنَا . هُوَ خَيْرُنَا عِلْمًا وَرَأْيًا!

– مَا وَجَدْتُمْ غَيْرَهُ ؟

obeikandi.com

صَاحَ الرَّفِيقُ الأَوَّلُ : لا نَرْضَى عَنْهُ بَدِيلا ...

لَمْ تَمُتِ الدَّهْشَةُ فِى عَينِ «المُقَوْقَسِ» :

– هَذَا الأَسْوَدُ؟ عَجَبًا !

ضَحِكَ العِمْلاقُ الأَسْودُ . قَالَ: لَعَلَّكَ لا تُصَدِّقُ!

– مَاذَا ؟

– الإِسْلامُ سَاوى بَينَ النَّاسِ ..

– كَيفَ؟ بِمَاذَا تَتَفَاضَلُونَ إِذَنْ ؟

– بِالتَّقْوَى يَا رَجُلُ !

قَالَ وَاحِدٌ مِنْ رَفِيقَيهِ : فَلْنَعُدْ إِلَى «عَمْرٍو» ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ !

رَفَعَ العِمْلاقُ يَدَهُ : لا . أَوْصَانِى «عَمْرٌو» بِالصَّبْرِ..

صَاحَ «المُقَوْقَسُ» يَسْأَلُهُ : مَا اسْمُكَ يَا رَجُلُ ؟

– «عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ» .

– إِذَنْ هَاتِ مَا عِنْدَكَ ..

قَالَ «عُبَادَةُ» : إِنْ كُنْتَ تَعْجَبُ فَهُنَاكَ أَلْفُ مُسْلِمٍ مِثْلِى أَسْوَدَ ..

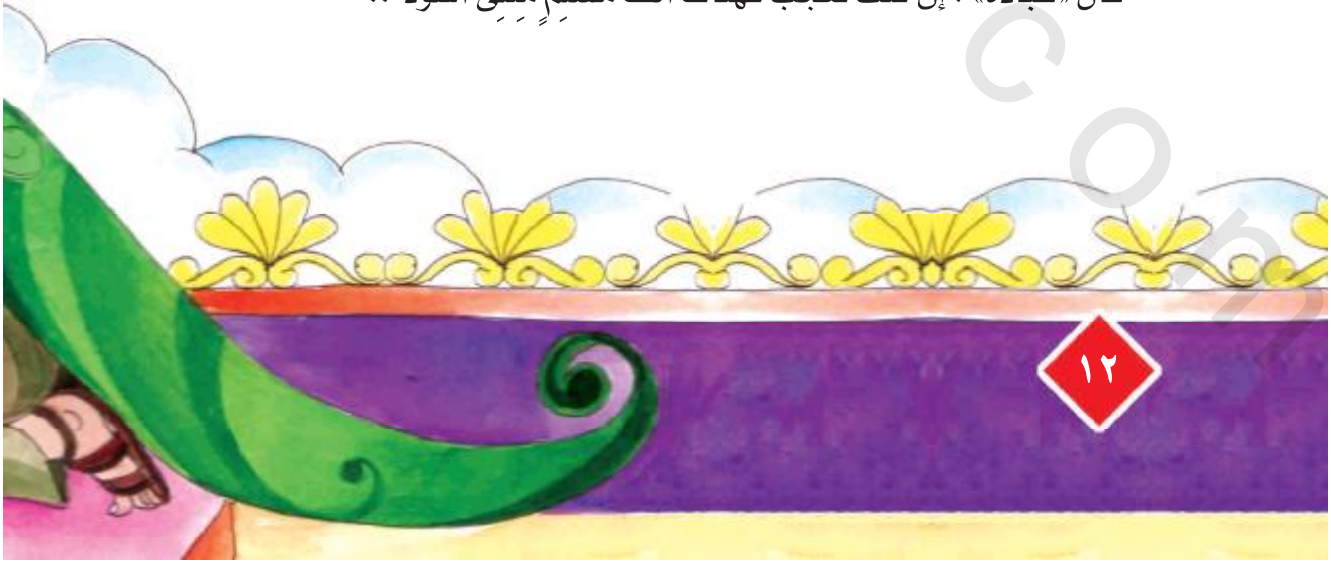

obeikandi.com

– كَمْ تَتَقَاضَى رَاتِبًا ؟

ضَحِكَ «عُبَادَةُ» . وَقَالَ : حَسْبِى لُقَيْمَاتٌ آكُلُهَا ..

– مَعْقُولٌ ؟

– وَشَمْلَةٌ أَلْتَحِفُهَا ...

سَرَحَ «المُقَوقَسُ» بِفِكْرِهِ.

هَؤُلاءِ قَومٌ لا يَنْخَدِعُونَ ..

أَمَّا القَيْصَرُ – قَيْصَرُ الرُّومِ ...

إِنْ طَلَبَ «المُقَوْقَسُ» أَنْ يَدْخُلَ عَلَى القَيْصَرِ ..

آه. لَنْ يَدْخُلَ قَبْلَ أَسَابِيعَ !

فَإِنِ اسْتَقْبَلَهُ القَيْصَرُ حَرَصَ عَلَى الأُبَّهَةِ...

يَرْتَدِي القَيصَرُ أَفْخَرَ الثِّيَابِ. يَتَزَيَّنُ بِالقَلائِدِ. يَتَحَلَّى بِالجَوَاهِرِ. يَرْتَدِي تَاجَهُ الذَّهَبِيَّ..

يَتَكَوَّمُ كَالثُّعْبَانِ عَلَى كُرْسِيِّ العَرْشِ ...

يَرْكَعُ زَائِرُهُ عَلَى رُكْبَتَيهِ وَيُقَبِّلُ يَدَ القَيصَرِ .

آه ..

الأَسْوَدُ العِمْلاقُ أَميرٌ .. مَاذَا يُمَيِّزُهُ عَنْ رَفِيقَيهِ ؟ لا شَيْءَ ..

كَرَّ «المُقَوْقَسُ» بِفِكْرِهِ. سَأَلَ «عُبَادَةَ» : مَاذَا تَطْلُبُونَ ؟

– حَدَّدَ «عَمْرٌو» المَطْلُوبَ فِي ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ ...

– وَالرَّابِعَةُ ؟

– لَيسَ عِنْدَنَا رَابِعَةٌ أَيُّهَا «المُقَوْقَسُ» ...

– بَلِ اسْمَعْنِي ...

– إِنَّنِي سَامِعٌ .. قُلْ ..

– نَتَصَالَحُ يَا عُبَادَةُ ..

– عَلَى أَيِّ شَيْءٍ ؟

– لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُم دِينَارَانِ.

– هَكَذَا ؟

– وَلأَمِيرِكُم مِائَةُ دِينَارٍ .

– ثُمَّ .

opeikandi.com

– لِلخَلِيفَةِ أَلْفُ دِينَارٍ . تَقْبِضُونَ المَالَ دُفْعَةً وَاحِدَةً.

– وَبَعْدَهَا ؟

– تَعُودُونَ إِلَى دِيَارِكُم.

– صَاحَ «عُبَادَةُ» صَيْحَةً انْخَلَعَ لَهَا قَلْبُ «المُقَوْقَسِ» : – أَتَخْدَعُنَا أَيُّهَا «المُقَوْقَسُ» ؟

.. نَسِيتَ أَنَّنَا زَهِدْنَا الدُّنْيَا ؟

– مَاذَا تَعْنِي ؟

– وَاللَّهِ لَلشَّهَادَةُ أَحَبُّ إِلَينَا مِنَ الحَيَاةِ !

– لَكِنَّ القَدَرَ يُخَبِّئُ لَكُم ..

قَاطَعَهُ «عُبَادَةُ» صَارِخًا : كَفَى، فَلا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلا اللَّهُ ..

– أَنْتُمْ يَا عُبَادَةُ فَرِيسَةٌ سَهْلَةٌ لِلرُّومِ !

– الرُّومُ ؟ لَقَدْ هَزَمْنَاهُم شَرَّ هَزِيمَةٍ ..

– إِنَّهُمْ أُلُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ وَأَنْتُمْ قِلَّةٌ ..

– كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ.

انْقَطَعَ حَبْلُ الحِوَارِ. اسْتَدَارَ «عُبَادَةُ» وَرَفِيقَاهُ .

صَعِدَ «المُقَوقَسُ» أَعْلَى الحِصْنِ يَنْظُرُ.. شَاهَدَ دُخَّانًا يَتَصَاعَدُ مِن مُخَيَّمِ المُسْلِمِينَ.

قَالَ لِنَفْسِهِ : قَوْمٌ لا يَنْهَزِمُونَ. يَنَامُونَ عَلَى الأَرْضِ. يَأْكُلُونَ وَسْطَ التُّرَابِ. الكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ سَوَاءٌ..

مَا أَعْجَبَ هَذَا !

اسْتَدْعَى «المُقَوْقَسُ» كَبِيرَ حُرَّاسِهِ ..

obeikandl.com

– أَمْرُ مَولاى «المُقَوقَسِ»..

– أَرْسِلْ إِلَى «عَمْرٍو» أَنَّنِى ذَاهِبٌ إِلَيهِ.

نَظَرَ إِلَيهِ كَبِيرُ الحُرَّاسِ مَذْهُولا ..

– أَنْتَ يَا مَوْلاى تَذْهَبُ إِلَيهِ ؟

– مَا الغَرِيبُ فِى هَذَا ؟

– فَلْيَأْتُوا إِلَيكَ خَاضِعِينَ ..

قَاطَعَهُ «المُقَوْقَسُ» بِحِدَّةٍ :

– لا . هُمْ زَاهِدُونَ فِى الدُّنْيَا ..

وَبِنَظْرَةٍ صَارِمَةٍ صَاحَ :

– عَجِّلْ. لِنُنْجِزَ الصُّلْحَ قَبْلَ الغُرُوبِ.!

obeikandl.com